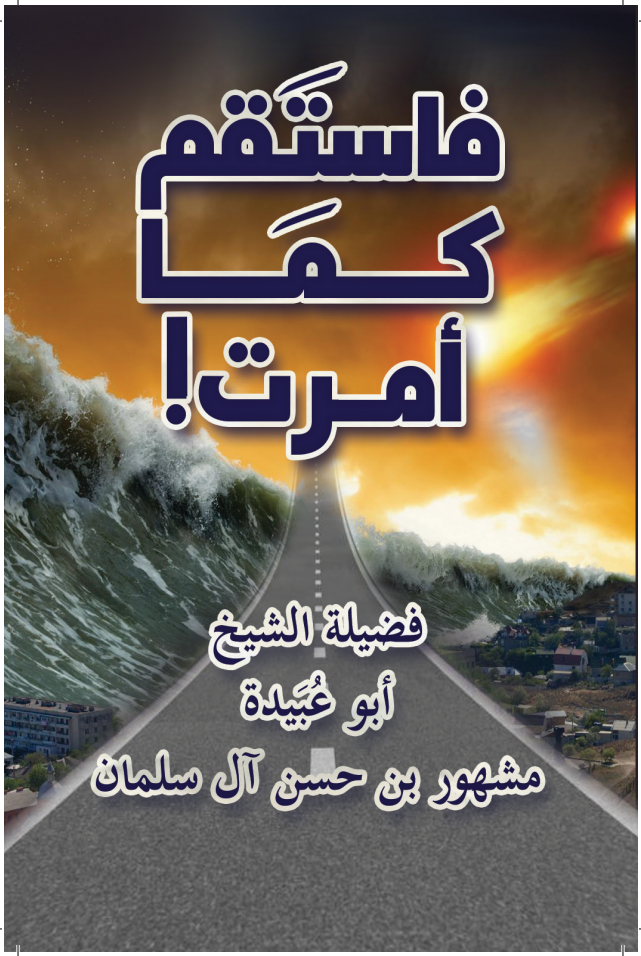
فاستقم
كما
أمرت!
فضيلة الشيخ
أبو عُبيدة
مشهور بن حسن آل سلمان

فاستقم كما أُمرت

فضيلة الشيخ

أبو عُبيدة

مشهور بن حسن آل سلمان

بِاللهِ يَا قَارِئًا كُتْبِي وَسَامِعَهَا ...

أَسْبِلْ عَلَيْهَا رِدَاءَ الْحُكْمِ وَالْكَرَمِ

وَاسْتُرْ بِلُطْفِكَ مَا تَلْقَاهُ مِنْ خَطَإٍ ...

أَوْ أَصْلِحَنْهُ تُثَبْ إِنْ كُنْتَ ذَا فَهَمِ

فَكَمْ جَوَادٍ كَبَا وَالسَّبْقُ عَادَتُهُ ...

وَكَمْ حُسَامٍ نَبَا أَوْ عَادَ ذُو ثُلَمِ

وَكُلُّنَا يَا أَخِي خَطَّاءُ ذُو زَلَلٍ ...

وَالْعُذْرُ يَقْبَلُهُ ذُو الْفَضْلِ وَالشِّيَمِ

مقدمة:

إن الحمد لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفُسَنا، ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدُه لا شريك له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، أما بعد:

الخطاب الإلهي للنبي – صلى الله

عليه وسلم – بالاستقامة على الدين:

أمر اللهُ – عز وجل – نبيَّه محمدًا – صلى الله عليه وسلم – بالاستقامة على الدين في قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير﴾ [هود: ١١٢].

ومن المعلوم – بإجماع علماء الأمة – أنَّ الأمر الذي يُخاطَبُ به النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – إنما هو خطابٌ لأمته ما لم تأتِ قرينةٌ تخصُّ

أحدهما، فالخطابُ للنبيِّ – صلى الله عليه وسلم – قد يكون خطابًا لأُمته، والخطاب للأُمةِ قد يكون خطابًا للنبي – صلى الله عليه وسلم–، ولعِظَمِ أمر الاستقامة على الدين، جاء الخطابُ في هذه الآية موجهًا لرسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فأمره اللهُ – عز وجل – بقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾.

والاستقامة لا تكون على وِفقِ العادات والتقاليد، ولا على

وِفقِ المألوف والمعتاد، ولا على وَفقِ العقلِ والفهم، ولا على وَفقِ الأهواء والسياسات، إنما تكونُ الاستقامةُ بالوحي.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾.

الأصلُ في الخطابِ أنه عامٌ للأمة، إلا أن هذا الأمر لا يقدر عليه إلا ثُلَّةٌ، منعوتةٌ بقوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ﴾، فالاستقامةُ ثقيلةٌ، لا يقدرُ عليها إلا من كان توَّابًا أوَّابًا، كثيرَ المحاسبةِ

والمراجعةِ لربه، وكثيرَ الحسابِ لنفسه.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ﴾.

وحتى يتضحَ البيانُ من الاستقامةِ، أمر اللهُ باجتنابِ ضِدِّها، وهو الطغيان، والطغيان هو الغلو، والخروج عن الصراط المستقيم.

والوسيلةُ لحصولِ الاستقامةِ إنما تكونُ باستشعارِ أن الله – عز وجل – بصيرٌ بعباده وما

يعملون، فقال – عز وجل –: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

فليس لأحدٍ أن يحققَ الاستقامة إلا باستشعاره أن الله – عز وجل – بصيرٌ به وبما يعمل .

الخطاب الإلهي للأمة بالاستقامة على الدين:

وقد جاء الأمرُ بالاستقامةِ

للأُمةِ كذلك في آيةٍ ثانية، نحتاجُ أن نتدبرَها، وأن نعرَف المعاني المشتركةَ بينها وبين الآيةِ التي أمر الله فيها نبيَّهُ – صلى الله عليه وسلم – بالاستقامة.

قال الله – عز وجل –:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۞ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٦– ٧].

قبل أن يأمرَ اللهُ – عز وجل – هذه الأمةَ بالاستقامة بقوله: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾، قال الله – عز وجل – مخاطبًا نبيَّه – صلى الله عليه وسلم –: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ..﴾، وفيه خطابٌ ضمنيٌّ للأمة، مفاده: لا تغلوا في رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ولا تتوجهوا إليه بالعبادة، ولا تطغوا في حبه وتقديره، فإنما رسول اللهِ – صلى الله عليه وسلم – بشرٌ مثلكم، فضله اللهُ عليكم

بالوحي.

ونلاحظ في هذه الآية، أن الوحيَ ذُكر فيها كذلك كما ذُكر في آية الاستقامة السابقة، فالدعوةُ التي دُعينا وندعوا إليها هي دعوةُ وحي، وليست دعوةَ فكرٍ، ولا دعوةَ استنباطٍ حُرَّةٌ من قيود الشرع، ولا دعوة تترك النصوص الشرعية الواضحة المُبَيَّنة في كتاب ربنا وأحاديثِ نبينا – صلى الله عليه وسلم – وتنأى عنها.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ..﴾، فهو – سبحانه – الذي يستحقُّ أن يُستقامَ على أمره، لأنهُ معبودٌ بحقٍ، واحدٌ أحدٌ لا ثانيَ له، فهو – سبحانه – الخالق، ومن خلق مَلَك، ومن ملك دبَّر، وأمر الناس بما شاء.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ..﴾.

الخطابُ هنا للأمة، حيث

أُمِرت هذه الأمة بأن تستقيمَ على أمر الله – عز وجل –: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾، وهذا مقامٌ عسيرٌ صعبٌ، فقوله – عز وجل –: ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾، يماثل قولهُ في الآيةِ الأولى: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، ووسيلةُ التوبة إنما هي الاستغفار؛ ولأن الاستقامةَ أمرُها عَسيرٌ، فإنها تحتاجُ إلى توبة، بخلاف الصلاة، فلعِظَمِ مقام الصلاة، وما فيها من مناجاة لله، يلزمك بمجرد أن تفرغ من

صلاتك، أن تقول: أستغفرُ الله، أستغفرُ الله، أستغفرُ الله، لما قد يعتريك فيها من خللٍ أو ذهولٍ أو نسيانٍ، وعدمِ استشعارٍ لِعِظَمِ المكان، ولعظم المناجاة، ولعظم الحال والموقف الذي كنت فيه، ولهذا كله وجب بعدها الاستغفار.

ولأن الاستقامة عسِيرة، قال الله – عز وجل –: ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾، ومن رحمة ربنا بنا، أن أرسل إلينا نبينا – صلى الله عليه وسلم – الذي كان من نصحه

لنا ورأفته بنا، أن أمرنا فقال: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ»(١).

سدد.. وقارب، فإذا ما استطعت أن تصيب الهدف، فحُم حوله، الهدف، إذا ما استطعت أن تلتزم الصراط المستقيم لزومًا كاملًا، فسدد وقارب واستقم،

(١) ٦٨٩٥- صحيح البخاري.

واستغفر ربك.

﴿.. وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِين ۞ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُون﴾.

فالصدقة مما يعين على الاستقامة، وكذلك الزكوات تعين على لزوم طريق الاستقامة، فالمتصدق لا يتصدق إلا وهو يؤمن يقينًا باليوم الآخر، ولذا كان بعض السلف لما يأتيه السائلون يقول لهم: «يا مرحبًا بالحمالين الذين ينقلون أموالنا من

دار إلى دار»، فمن تتصدق عليه بمالك في الدنيا، ينقل هذا المال من دار الفناء إلى دار الخلود، فالصدقة برهان، والذي لا يؤمن باليوم الآخر يعسُر عليه جدًّا مقام الاستقامة، فأولئك هم: ﴿الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُون﴾.

بركات وثمرات الاستقامة على الدين:

الاستقامة لها بركاتٍ وثمار،

ودونها تقع المصائب، وتتوالى النكبات، وتؤثِّرُ سلبًا على الأمم والشعوب، وفي أثر الاستقامة يقول الله – عز وجل –:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت:

30- 32].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: 30].

الاستقامة لا بد أن تكون على توحيد، فهي حق لا إله إلا الله، ولذا جاء في سنن ابن ماجه الحديث الذي سأل فيه سفيانُ بن عبد الله الثقفي رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – أن يوصيه، فقال له: «قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ»(٢)، فالاستقامة تتضمن العلم، وبدون العلم، لا يمكن تحصيل

(٢) ٢٦٩٣ – سنن ابن ماجة.

الاستقامة، والاستقامة تتضمن الإخلاص، كما تتضمن التزام السنة، والثبات على هذا الطريق، هذه متضمنات الاستقامة، ولذا قال أبو بكرٍ -رضي الله عنه- في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ..﴾ [فصلت: ٣٠]، قال: «فلم يلتفتوا إلى إله غيره»(٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج ٧، ص ٦٧١، تفسير سورة فصلت، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس، رضي الله عنهما: أي آية في كتاب الله أرخص؟ قال قوله: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} على شهادة أن لا إله إلا الله.

إن أعظم كلمةٍ يقولها العبد هي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»، فهي أثقل من السماوات والأرض في الميزان، هذه الكلمة لها حقوق على قائليها، فمن قال: «لا إله إلا الله»، فإنه يدفع دمَه ثمنًا للرجوع عنها، : «مَنِ ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ، فَاقْتُلُوهُ»(٤).

إن هذه الكلمة عظيمة، ولها حقٌ على قائليها، ومن هذا الحق: أن يستقيموا عليها،

(٤) ٣٣٩٣١- معجم الطبراني.

وأن يجاهدوا ويجتهدوا في هذه الاستقامة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ..﴾ [فصلت: ٣٠].

وذلك في النزع ، حين يكون الإنسان في إدبارٍ عن دارٍ، وإقبالٍ على أخرى، والذي يدبر عن دار وينتقل إلى دار أخرى يحتاج أن يطمئن إلى ما هو مقبلٌ عليه، ويحتاج إلى أن يُطَمأن على ما ترك، والله – عز وجل – ينزلُ

الملائكةَ حين النزع على أهل الاستقامة، الذين استقاموا على التوحيد بعد ما قالوا: ربنا الله، وفي هذا إشارة إلى أن الاستقامة لا تتحققُ دون التوحيد الصحيح، ودون الوحي، الذي يشمل الكتاب والسنة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

أي: لا تخافوا مما أنتم مقبلون عليه، ولا تحزنوا على ما تركتم خلفكم، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

قال الإمام الشافعي مستنبطًا من هذه الآية: «إن لم يكن أهل الاستقامة هم أولياء الله، فلا أعلم لله وليًّا، فاعلم يا عبد الله،

أن الذين قال الله عنهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ..﴾ [فصلت: ٣١]، هم أهل الاستقامة، وأهل الاستقامة أهل رعاية وحفظ، أفرادًا كانوا أو مجتمعين.

أتعلم يا عبد الله أنك عندما تقول: «اللهم إنا نعوذ بك من سخطك ومقتك».تتعوذ بالله – عز وجل – من مقته!! أتدري ما هو مقت الله؟ مقت الله يتمثل في أن يتركك ربك تدبر شئونك

بنفسك، وألا يكونَ ناصرًا ومعينًا لك، ولا مُدبرًا لأمرك، عندما تقع الشعوب والحكومات في المصائب والويلات؛ فإن من علامات مقت الله: أن يتركها وشأنها، أن يتركها وتدابيرها، دبروا أمركم.. هذا نتيجة عملكم، هذا ما وصلتم إليه، نعوذ بالله من سخطه، ونعوذ بالله من مقته.

وإن من علامات مقت الله أن لا يكون الله معك في وقت الحاجة: «تَعَرَّفْ بِاللَّهِ فِي الرَّخَاءِ

يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»[٥]، والتعرَّف إلى الله في الرخاء يعني أن تعرف اللهَ في الأمن، فيعرفك في وقت القلاقل والفتن، أن تعرفَ اللهَ في القوة، فيعرفك في الضعف، أن تعرفَ اللهَ في الشباب، فيعرفك في الشيخوخة، أن تعرِفَ اللهَ في الغنى، فيعرفك في الفقر، أن تعرفَ اللهَ – عز وجل – في الرخاء، فيعرفك في الشدة، ولذا فإنَّ أهل الاستقامة هم أولياء الله.

(٥)– ٠٨٠١١ – المعجم الكبير للطبراني.

وإن من ثمرات الاستقامة على الدين ما يلمسه المستقيمون في حياتهم الدنيا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

لو استقام الناس على التوحيد، وتحققت الاستقامة، لكفاهم الله – جل في علاه – صعوبة العيش، ولجعلهم ينعُمون في رغدٍ وبحبوحةٍ من العيش، وإذا لم تتحقق الاستقامة، فإن

سنن الله تدور في خلقه، وقد قصَّ الله تعالى علينا قَصَصًا – وليس قِصَصًا – والفرقُ بين «القَصَصِ» و«القِصَص»: أن القَصص حقيقة تاريخية كانت موجودة، والقِصص يشمل ذلك ويشمل ما يخترعه الخيال وما يكتبه الروائيون، والله أنزل إلينا أحسن القَصَص، وقصَّ علينا في كتابه قَصَصًا تاريخية، لتكون مثالًا ومعيارًا وميزانًا نرد الأمور إليها، وعلم الله يشمل الماضي

والحاضر والمستقبل، فكل ما نحتاج إليه في حياتنا وواقعنا، ضرب الله لنا به الأمثال وقص علينا فيه القَصص، وما من أمة من الأمم السابقة إلا ووقعت في معصية، وقد أراد النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يحوّل هذه القَصص من حالتها التأريخية إلى حالة المثلية، كما سيتضح من خلال صفحات هذا الكُتيب.

خيرات الاستقامة وسيئات الذنوب:

إن الاستقامة تتولد عنها الخيرات على مستوى الأفراد والشعوب والحكومات، وفي المقابل نجد أن الذنوب والمعاصي يتولد عنها الشرور على مستوى الأفراد والشعوب والحكومات، ما دام هناك معاصي، فلابد أن يظهر أثرُها السيء، ومن أسوأِ هذه الآثار: المقت من الله، بمعنى أن يترك الله الناس وشأنهم وتدابيرهم، وألا يكون حافظًا لهم،

كما سبق وبينَّا.

أما الذنوب، فآثارها تشمل فاعليها وغيرهم، ذلك لأنَّ الذنوب أقسام، منها ذنوب شخصية يتوب الله على صاحبها، ومنها ذنوب جماعية لها أثر على المجتمع، ومن أكثر أسباب ظهور الذنوب الجماعية عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكلٌ من التبرج والزنا والربا ذنوب جماعية، فالمرابي قبل أن يرابي يعرف أن مِنَ الأصحاب والأحباب والأغنياء

من يمكن أن يقرضه بالربا، ولا يتأثر أي منهم بعظم هذا الذنب، فالذي لا يقرض المدين، ويُلجئه مضطرًّا إلى الاقتراض بالربا، ليس إلا شريكًا له في الوزر، فما أحوجنا إلى صُندوقِ وقفٍ للنقد، يؤخذ له من الأغنياء ثم في المآل يرد إليهم، كمثال للقرض الحسن، وإني أعرض على المسئولين هذا المشروع، حتى نخفف من هذه الجريمة.

كما أن من الجرائم ما

تكون العقوبة فيها جماعية، مما يحوجنا إلى تدابير جماعية ليحفظنا ربنا – عز وجل –، وليُبعِدَ مقته عنا، وهذا من بعض آثار الذنوب وسيئاتها.

يقول النبي – صلى الله عليه وسلم– في صحيح مسلم: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ رءُوسُهُنَّ كَأَمْثَالِ أَسْنِمَةِ الْبُخْتِ

الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَتُوجَدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا»(٦).

لا شك أن بين الصنفين صلة عظيمة، بل إنَّ في الحديث قاعدة مهمة، فكما أن للمهندس قواعد لإقامة البناء، وغيره من أرباب العلوم كالكيمياء والفيزياء والرياضيات، فإن لكل مادة قواعدها التي تقوم عليها، كذلك تقوم الأمم على قواعد، منها التي

(٦) ١٧٩٣ – صحيح مسلم.

قررها هذا الحديث، فذكره للأقوام الذين بأيديهم أسواطٌ كأذناب البقر رمزٌ للظلم السياسي، والنساء الكاسيات العاريات رمزٌ للفساد الخلقي، فمتى ظهر الفساد الخُلقي لا بد أن يظهر معه الظلم السياسي، فمن يعِش عبدًا لشهوته، لن يقول لمن تبرجت: اتقِ الله، ولن يقول للظالم: أنت ظالم، فالحديث يُظهر التلازم بين هذين الجانبين، وهذا من آثار الذنوب، وما ظهر الربا أو

الزنا في قوم إلا أحلوا بأنفسهم الدمار – والعياذ بالله تعالى –؛ لأن كل من الربا والزنا ليس ذنبًا يقع بسبب غفلة.

ومع هذا فإن الذنوب الشخصية لها أثر عظيم على الناس والمجتمع، وإياك أن تظن أنك إن أذنبت فاستغفرت وقُبِلت توبتك أنك بقيت بعد ذنبك بمنزلتك قبل ذنبك، فلا يغرينَّك الشيطان باقتراف الذنب ثم التوبة منه، تذكروا معي الأنبياء، لما

اشتد المحشر على الناس، واشتد عليهم الهول فيه، فيأتون الأنبياء، ويطلبون منهم أن يشفعوا لهم عند ربهم بأن يعجل الحساب، فنجد كل نبيٍّ في ذاك المقام يذكر ذنبه الذي تاب الله – عز وجل – على صاحبه في الدنيا، إلا أنَّ منزلة من أذنب ليست كمنزلته قبل الذنب ولو كان نبيًّا، أو رسولًا مُرسَلًا، حتى يأتون النبي – صلى الله عليه وسلم – فيقول نبينا –صلى الله عليه وسلم – كما

ثبت في صحيح البخاري: «أَنَا لَهَا، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»(٧)، فالشاهد أن الذنب له آثار عديدة، قد تظهر في قوة البدن، أو الرزق، أو الولد، وقد يُحرم المُذنبُ الولدَ أو الرزق بالذنب

(٧)- ٦٥٩٦ - صحيح البخاري

يُصيبه، وقد جاء التصريح بهذا في بعض النصوص من كتاب ربنا وأحاديث نبينا – صلى الله عليه وسلم –، يقول الله –عز وجل –: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠– ١٢].

وجاء في الأثر كما عند ابن مردويه، أَنَّ رجلًا جاء إلى الحسن بن علي، فقال: «إني

فقير، فادعُ الله لي بالغنى. قال: عليك بالاستغفار. وجاء آخر فقال: إني عقيم، فادعُ الله لي بالولد. فقال: عليك بالاستغفار. فسأله تلامذته: هذا يسألك الفقر وتقول له عليك بالاستغفار، وآخر يسألك أن تدعو الله له بأن يرفع عنه العقم وأن يرزقه الولد فتقول له عليك بالاستغفار؟ فقال: أما قرأتم قول الله – عز وجل –: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ..﴾ [نوح: ١٠]، ثم قال: ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ

..﴾ [نوح: ١٢] هذا علاج الفقر، ﴿..**وَبَنِينَ** ..﴾ [نوح: ١٢] هذا علاج العقم».

فالاستغفار علاجٌ للفقر، وعلاجٌ للعقم، ولذا أسند النووي عن أبي بكرٍ – رضي الله تعالى عنه – قال: «ما عُطِب شجرٌ ولا صيد طائرٌ إلا بتقصيره في التسبيح». فالطيور والأشجار تسبح ربها، فإن قصَّرت في تسبيحها، قُطِعَت الأشجار، وصِيدَت الطيور.

ويقول النبي – صلى الله عليه وسلم–: «وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»(٨)، فالذنب سبب من أسباب حرمان الرزق، وله خطره على الأفراد، وأخطر ما يمكن أن يكون للذنب أثره على الإنسان أن يَحرف قلبه، ولا يستقيم ميزانه، وأن يدخل في من ذكرهم الله – عز وجل – في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ

(٨) ٢١٠٤ – سنن ابن ماجة.

الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، وهذا أخطر ما يمكن أن يقع في أفراد هذه الأمة، كما نرى من الشواهد، وكما نرى عند كثيرٍ من الناس.

قال أهل التفسير: ينسى الإنسان نفسه بأن يذنب الذنب، فلا يستحيي، ولا ينكسر، وأن يذنب الإنسان الذنب ولا يبالي ولا يشعر به، قال الله تعالى: ﴿.. أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، الذين فسقوا بهذا بالذنب، فالذنب يجر إلى ذنب آخر، والسيئة تجر إلى

سيئة أخرى – والعياذ بالله – كما قال الله عن بني إسرائيل: ﴿.. وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ..﴾ [البقرة: ٨١] أي حتى تحيط الخطيئة بالمُخطئ من كل مكان، فإذا أصبح حاله هكذا، ثقُلت عليه العبادة والطاعة، وانقطع عن الصلة برب السماء والأرض، وتركه الله حتى يُخذل – والعياذ بالله تعالى – وإن من أسوأ آثار الذنوب، أن الإنسان كلما وقع في الخُذلان، وأراد أن يقوم منه،

وقع في خُذلان أكبر منه.

آثار الذنوب على المجتمعات والشعوب:

وكما أن للذنوب أثرًا على الأفراد، فإن للذنوب أثرًا على المجتمعات والشعوب، في كافة الأنحاء، بما يشمل نوع الذنوب، فلكل نوع من أنواع الذنوب أثر في نمط من أنماط الحياة، يدل على ذلك ما أخرجه ابن ماجة والبيهقي في الشُّعَب بسندٍ جيد عن عبد الله

بن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «خَمْسُ خِصَالٍ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ أَنْ تَنْزِلَ بِكُمُ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فَشَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَمَا مَنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا

الْمَطَرَ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ يَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَّخِذُوا فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جُعِلَ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ»(٩).

فالذنوب أنواع، وكل نوع منها له أثره في نمط من أنماط الحياة، وها هو النبي –صلى الله عليه وسلم – يبين لنا خمسة

(٩) ٦٦٠٠١ – شُعب الإيمان للبيهقي.

أنواع من هذه الذنوب وآثارها على المجتمع.

النوع الأول:

«.. لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فَشَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ ..».

يقرر هنا النبي – صلى الله عليه وسلم – قاعدة عظيمة ينبغي لها أن تُكتب على أبواب المستشفيات والمراكز العلاجية

وأن تتخذها وزارة الصحة شعاراً لها، ولو أدرك الناس معنى هذا الحديث، لكان حصناً لهم من الأمراض والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، ولأمكن لحراس العقيدة والفضيلة أن يحاربوا ظهور المعصية بهذا المفهوم، مع النصح للناس بالرفق واللين والكلمة الطيبة، فهنيئاً لمن أدرك هذا المعنى وعمل به داعياً بين الناس على اختلاف أطيافهم وأديانهم، وإن الكلمة

الطيبة والأسلوب المتسم بالحكمة والموعظة الحسنة والبشاشة مع الناس، هي من المفاتيح التي تفتح لها قلوب الخلق، كما كان حال المسلمين سابقاً، فهذا أكبر تجمع للمسلمين على وجه الكرة الأرضية نراه في إندونيسيا، وفيها ما يزيد على مائة وثمانين مليون مسلم، وإندونيسيا لم يدخلها الإسلام عن طريق الفتوحات والغزوات، وإنما تأثر أهلها بأخلاق التجار المسلمين الذين

فتحوا إندونيسيا بأخلاقهم الطيبة ومعاملتهم الحسنة، وأسلوبهم وأمانتهم في التجارة، فهنيئًا لمن ينشر دين الله بهذه طريقة.

«خَمْسُ خِصَالٍ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ أَنْ تَنْزِلَ بِكُمُ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا ..» الإعلان بالفاحشة أشد من الفاحشة، ذلك لأن الإعلان بالفاحشة يعني أنها تحولت من ذنب شخصي، إلى ذنب عام

بين أفراد المجتمع، ولذا قال- صلى الله عليه وسلم – مقرراً هذه القاعدة: «.. فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فَشَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ ..» فتنتشر في هذا المجتمع الذي أقر بالفاحشة وأعلنها الأمراض والأوجاع التي لم يعرفها آباؤهم وأجدادهم كأثر عام لهذه الذنوب المعلنة، ولذا يقول الله – عزو وجل –: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ..﴾ [الأنفال: ٢٥]، كما

أخرج ابن ماجة في الشُّعب عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: «إِنَّ الظَّالِمَ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: بَلَى وَاللهِ، حَتَّى الْحُبَارَى لَتَمُوتُ فِي وَكْرِهَا هُزَالًا لَظُلْمِ الظَّالِمِ»(١٠).

النوع الثاني:

يقول النبي – صلى الله عليه وسلم –: «وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ

(١٠) ٥٧٠٧ – شُعب الإيمان للبيهقي.

السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ»[١١]، فإن فشا بين التجار على كافة أصنافهم التطفيف في المكيال والميزان، وفشا هذا في مجتمعهم وأقروه، شملتهم هذه القاعدة التي أقرها النبي – صلى الله عليه وسلم –: «وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ»، وقد ورد معنى السنين في حديث نبوي آخر، يقول فيه النبي – صلى الله عليه وسلم – فيما ثبت عنه: «لَيْسَتْ

(١١) ٦٦٠٠١ – شُعب الإيمان للبيهقي.

السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمْطَرُوا وَلَكِنْ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا»(١٢).

فقد يكون المطر كثيراً ولكنه في غير وقته، أو كثيراً لدرجة الإضرار بالأرض والنبات والزرع، فتُحرم الأرض من الخير ويُحْرَمُه الناس، وقد يكون من أسباب ذلك: تطفيف المكيال والميزان، وهو من رموز الغش، فكل ما يلحق به مما يساويه ومما

(١٢) ٦٦١٥ – صحيح مسلم.

هو أعلى منه هو مثله وزيادة.

«وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ» فتصبح الحياة شديدة، ثقيلة على الناس، قليلة الرغد والرزق.

«وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ»، فلا يجور السلطان على شعبه إلا بما كسبت أيديهم، وبسبب معاصيهم وانعدام تقوى الله – عز وجل – بينهم، خاصة فيمن يملكون المال

كفئة التجار وأمثالهم.

وقد أدرك العرب في الجاهلية هذا المعنى، فكانوا يحرصون على توزيع مسؤولية الحج فيما بينهم، ومنها على سبيل المثال: تفويج الحجيج من مزدلفة إلى منى الذي كان بيد خزاعة، وكان من دعائهم قبل الإسلام كما يُقرأ في كتب الأدب: «اللهم اجعل أموالنا بأيدي سمحائنا وحبب بين نسائنا، وبغض بين ضعافنا»، فإذا ما

أراد الله خيرًا بهذه الأمة جعل الأموال بأيدي السمحاء، ولكانت نفوس من بأيديهم الأموال أكبر من أموالهم، وجعل المناصب بأيدي السمحاء، ولكانت نفوس من بأيديهم المناصب أعظم من مناصبهم، وحينئذٍ تهنأ الأمة وتسعد.

أما إذا كان كل من المال والمنصب أكبر من نفوس أصحابهما، فالويل لهذه الأمة، ولذا ما طفف قومٌ المكيال

والميزان إلا أُخِذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان.

وهذا الحديث يصلح كقاعدة نبوية لوزارة التموين، تُعمم بين التجار حتى لا تقع العقوبة العامة، بسبب تطفيف المكيال والميزان، الذي يُعد جريمةٌ اجتماعية، وليست جريمةً شخصية.

النوع الثالث:

يقول النبي – صلى الله عليه وسلم –: «وَمَا مَنَعُوا زَكَاةَ

أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْمَطَرَ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا»(١٣). فلا ينزل المطر بين هؤلاء إلا رحمةً من الله – عز وجل – بالبهائم، وهذه قاعدة تصلح للأرصاد الجوية، فإن من أسباب نزول المطر أداء الزكاة، ومن أسباب منعه منع الزكوات، وإن زكوات الناس لتُعرف من موسم المطر.

النوع الرابع:

يقول فيه النبي – صلى الله

(١٣) ٦٦٠٠١ – شُعب الإيمان للبيهقي.

عليه وسلم –: «وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ»(١٤)، وفي روايةً لأحمد في المسند: «أَخَذَ قِطْعَةً مِمَّا فِي أَيْدِيهِمْ»، فإذا أردنا أن نعرف لماذا تضيع بلاد المسلمين، لعلمنا أن هذا السبب، ما نقض قومٌ عهد اللهِ وعهد رسوله – صلى الله عليه وسلم– إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم فأخذ قطعةً مما

(١٤) ٦٦٠٠١ – شُعب الإيمان للبيهقي.

في أيديهم، أو كما قال: «بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ».

النوع الخامس:

يقول فيه النبي – صلى الله عليه وسلم –: «وَمَا لَمْ يَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَّخِذُوا فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جُعِلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»(١٥).

هذا هو النوع الخامس، أو الخصلة الخامسة، وهي تحتاج منا لتدبر، وقد يسر الله لي ربطاً

(١٥) ٦٦٠٠١ – شُعب الإيمان للبيهقي.

بين هذا الذنب وأثره لم أره عند أحدٍ، فإن أصبت فأحمده سبحانه، وإلا فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه.

«وَمَا لَمْ يَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَّخِذُوا فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جُعِلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»، فسر وجود البأس والشدة بين الشعوب عدم الحكم بكتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم –، لو سأل سائل فقال: هل كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يعلم أنه سيأتي

في آخر الزمان حكام مسلمون يحكمون بغير ما أنزل الله؟ فإن الإجابة تأتي في قول النبي – صلى الله عليه وسلم –: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلاثًا فَأَعْطَانِيَ اثْنَتَيْنِ، وَزَوَى عَنِّي وَاحِدَةً، سَأَلْتُهُ أَنْ لا يُسَلَّطَ عَلَى أُمَّتِي عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَجْتَاحَهُمْ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ، فَأَعْطَانِيها، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ، فَمَنَعَنِيهَا»(١٦).

(١٦) ٩٩٦٦١ – المعجم الكبير للطبراني.

فهذه الأمة لا تَهلك هلاكاً عامًّا بسنة وجوع أو زلازل ومثل ذلك من الكوارث العامة، ولا تُهلك بتسليط عدوّ يتكالبِ عليها كلها، قد يأخذ طرفًا أو قطعة من بلاد المسلمين، ولكن لا يمكنه أن يأخذ كافة البلاد الإسلامية مرةً واحدة، وهذا كله جلي في قوله – صلى الله عليه وسلم –: « ... سَأَلْتُهُ أَنْ لا يُسَلَّطَ عَلَى أُمَّتِي عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَجْتَاحَهُمْ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يُهْلِكَهُمْ

بِسَنَةٍ، فَأَعْطَانِيها ...».

ثم قال: «وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ، فَمَنَعَنِيهَا»، فإن ربطنا هذا بقوله -صلى الله عليه وسلم -: «وَمَا لَمْ يَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَّخِذُوا فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جَعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ» لعلمنا علم يقين أن نبينا – صلى الله عليه وسلم – كان يعلم أن أمته ستُحكم بغير كتاب الله وسنته – صلى الله عليه وسلم – وما ذكر تكفيرهم، وفيه دلالة على صحة

استصحاب إسلامهم، وأن مجرد الحكم بغير ما أنزل الله لا يكفر هؤلاء، وهذا دليلٌ خفيٌ قوي من خلال الربط بين هذه النصوص.

إذًا هذا الحديث فيه ألوان وضُروب وأنواع لذنوب لها آثار ترتبت عليها فتعددت وتنوعت بحسب كل ذنب، ولم تشمل آثارها وعقوباتها أصحابها فقط، وإنما عمَّت جميع الناس وكافة أفراد المجتمع، وإذا تخلَّفت فبرحمةٍ منه – سبحانه – وفضل،

فقوله – صلى الله عليه وسلم– : «وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا» هو من رحمته – سبحانه وتعالى بالبهائم –سبحانه وتعالى–، ولولا رحمة الله بخلقه وفضله عليهم، لعمت فيهم هذه الآثار التي هي من الآيات والسنن في المجتمعات.

كتاب الله ذِكرٌ لنا فَلْنستقم:

إن أقبلت على كتاب الله؛ فأقبل على قراءته لتعيش، لتحيا

بـه، ليكون لك ذكرًا، ليكون لك بين هذه الأمم منزلة، تدبر معي أخي الحبيب قول ربك – عز وجل –: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

(لقد): للتحقيق، والأمر قد تم، فذِكرُنا في كتابنا ولا ذكر لنا في غيره، ومن هذا أخذ عمر مقولته المشهورة: «إنا قومٌ أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله»، هنالك سُننٌ

لله في المجتمعات، هذه السنّن لا تتخلف، وقد جاءت مفصلة ومجملة في كثير من الآيات، تدبر معي قول الله – عز وجل –: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

من القواعد التي قررها علماء الأصول أن النكرة في

سياق الإثبات تفيد الإطلاق، فقوله عز وجل – : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ... ﴾ أيُّ قرية، لا تسأل عن اسمها أو عن موقعها أو عن أهلها، لا يعنينا شيء من ذلك، لكن ما يهمنا سُنَّة الله التي لا تتخلف، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ ما، ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ تعيش في رغد وأمن، والأمن من النعم العظيمة التي امتن الله – عز وجل – بها على قريش فقال: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۞ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ

الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۞ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۞ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١- ٤]، فالأمن نعمة، لولاها ما سافرنا ولا انتقلنا، ولا جلسنا في مجالس العلم، ولا حججنا ولا اعتمرنا، إن نعمة الأمن نعمة عظيمة، والنبي - صلى الله عليه وسلم - في سنن ابن ماجة يقول: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ

الدُّنْيَا»[١٧]، كأن الدنيا كلها عنده إن اجتمعت له هذه الأمور.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ..﴾ [النحل: ١١٢] وما سماها، لأن فيما أصاب هذه القرية سنة لا تتخلف، ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ يعيش الناس فيها في رغد وخير، ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ لم تؤدِّ حق الله، ولم تشكر النعمة، ولم يؤدِّ أفرادها زكاة أموالهم، فالذي لا

(٧١) ١٣١٤ – سنن ابن ماجة.

يخرج الزكاة ليس مجرمًا في حق نفسه، بل هو مجرمٌ في حق أمته، وكذلك الذي يترك الصلاة، يقول الحافظ ابن حجر: «الذي يترك صلاة ركعتين لله يضر بكل عبدٍ صالح لله في السماء والأرض من لدن آدم لقيام الساعة»، لِم؟ قال: «لأن المصلي يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، والذي يترك الركعتين يترك السلام على عباد الله الصالحين في السماء والأرض وعباد الله الصالحين

جميعًا، فيضر كل عبدٍ صالحٍ إلى يوم الدين».

فهذا تارك الصلاة، وزره ليس فقط في حق نفسه، بل هو وزرٌ في حق الأنبياء، وحق الأولياء، وحق عباد الله الصالحين، ولذا تأمل معي: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ..﴾ [النحل: ١١٢] فما المطلوب بعد ضرب هذا المثل؟ المطلوب أن تشكر النعمة، كيف يكون شكر

النعمة؟ ﴿.. اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ..﴾ [سبأ: ١٣]، اعملوا ... اعملوا ... اتركوا العبث، واعملوا بالطاعات، وحافظوا على النعمة.

﴿.. فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ..﴾ [النحل: ١١٢]، هنا تبينت السُنَّة، و(الفاء) تفيد التعقيب المباشر: ﴿.. فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ ..﴾ [النحل: ١١٢]، هذه سنة لا تتخلف، فمتى كفرت قريةٌ بأنعُم الله بغض النظر أين هي، من الذي يعيش فيها، فلا بد أن

تذوق لباس الجوع أولًا، فيذهب عنها الرغد، فإن لم تستيقظ ولم تتب ولم ترجع فلا بد أن يتبع الجوع الخوف، ومتى حصلت الذنوب في الأمة، فقدت مقومًا من مقومات الأمن، ومنها كثْرةُ الجرائم، الهلع والخوف، وفقدان الأمن، والله – عز وجل – لم يقل فأذاقها لباس الجوع ولباس الخوف، بل قال: ﴿لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ لتلازمهما ولقرب بعضهما من بعض.

هذه إرادة الله – عز وجل – في المجتمعات، وهذه قاعدة في الخلق، كلما ظهرت الذنوب في أمة، مقتها الله – عز وجل – وتركها تدبر شأنها وفق قدراتها، وتخرج عن حفظ ربها لها، وهذا ما قررناه سابقاً، أن الله – عز وجل – يترك العاصي وشأنه ونفسه، دون أن يتدخل في رعايته، وحينها لا بد أن يذهب الأمن، بعد أن يأتي الخوف أولًا، وهذه مصيبة عظيمة، ولذا فإن

العاصي والمذنب كلًّا منهما، لا يضر نفسه فحسب، بل يضر أمته بأكملها، بينما الطاعة فيها الخير والبركة، وفيها الأمن والعافية ورغد العيش.

قصة سبأ التي أعرضت عن طريق الاستقامة:

تلك كانت القواعد النظرية المقررة في الكتاب والسنة، وقصة سبأ التي وردت في كتاب الله – عز وجل – من أمثلة تطبيقاتها

العلمية.

يقول الله – عز وجل – في كتابه الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

(سبأ) اسم مكان أو اسم قبيلة، قيل فيها هذا وذاك، ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ... ﴾، وفي الآية قراءة متواترة أخرى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ ... ﴾،

بالجمع، وقال المدققون من أهل التفسير: ما سبب ذكر مسكنهم أو مساكنهم في القراءة المتواترة؟ ولم يذكر بلادهم أو ديارهم؟ قالوا لشدة الرخاء، كان لكل بيت في سبأ جنتان، جنة عن يمين البيت، وجنة عن يسار البيت، فكل مسكن في سبأ يختص بجنتيه لشدة رغد عيشهم، ولذا ذكر آية تلك المساكن وليست تلك البلد لبيان اختصاص كل مسكن منها برغد العيش دون استثناء لأحد،

ولذا جاء التفصيل: ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥]، وقال علماء الإعراب أن ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من: ﴿ آيَةٌ﴾، فلكل مسكنٍ في سبأ: ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥]، فامتن الله عليهم بفضله ولم يكن مطلوبًا منهم سوى التنعم بهذا الرزق الكثير وشكر الله عليه: ﴿.. كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ..﴾ [سبأ: ١٥]، كلوا من رزق الله، وتمتعوا به، وأدُّوا حق الله – عز وجل

– في هذه النعمة التي ترتعون فيها.

﴿.. بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]، والتنكير للتفخيم، قال المؤرخون من المفسرين: كانت المرأة إذا حملت زنبيلًا –أي إناء– فوضعته على رأسها وطافت تحت جنة بيتها، امتلأ من جميع أصناف الفاكهة، من غير قطفٍ بالبنان، ولا هزٍ للأغصان، وذلك من شدة الرغد والنعيم، ما إن تطوف بالإناء الذي على رأسها

حتى يمتلئ بالخيرات، وكان الرجل الغريب إذا ورد على سبأ، وكان على ملابسه القُمَّل، مات القُمَّل من شدة عليل هواء تلك البلدة، فهي بلدة طيبة وهواءها طيب، ﴿.. بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ ترتع في الخيرات، وترفل في النعيم.

﴿فَأَعْرَضُوا ..﴾ [سبأ: ١٦]، وهذه الكلمة يستلزم منها وجوبًا تقدير محذوف، وهذا الإعراض كان عن الأنبياء والرسل الذين أُرسلوا إليهم والاستجابة لدعوتهم،

وكذلك الإعراض عن شكر النعمة، فعصوا ربهم ورسله، فكانت هذه النتيجة، التي جاء ذكرها في مقام التنبيه على آثار الذنوب والمعاصي في الأمة والشعب، فحذف ما أعرضوا عنه ولم يذكره مفصلًا ولا مجملاً، وإنما ذكر إعراضهم الذي يحتمل تكذيب الرسل والكفر بهم، وبما أرسلوا به من دعوة وآيات بينات فقابلوها بالعناد والتكذيب، كل هذا لم يُذكر على سبيل الإجمال أو

التفصيل، وإنما جاء التفصيل في عقوبة الإعراض، وهذه العقوبة من سنن الله في كونه، وتختلف باختلاف الأماكن والأزمان، لحكمة عظيمة يعلمها الله -عز وجل -، وتعجز العقول البشرية القاصرة عن إدراكها، - سبحانه وتعالى - لا يخفى عن علمه خافية، وقدرته تحيط بكل شيء، وليس المسلم كالمجرم، فسبحانه أعدل العادلين، وأحكم الحاكمين. ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

سَيْلَ الْعَرِمِ ..﴾ [سبأ: ١٦]، وقد بين علماء اللغة العربية، أن العرب كانوا في تلك الحقبة يسمون السيول كل سيلٍ باسمه، فسيل العرِم إما أنه اسمٌ لذاك السيل، وإما أنه صفة له، والعَرِم أي السيل الشديد.

﴿.. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ..﴾ [سبأ: ١٦]، وفي قراءة صحيحة ﴿أُكُلِ خَمْطٍ﴾ أيضًا، ﴿.. أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ

مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦]، أما ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ﴾ قيل أنهما شجرتان، شجرة الأراك، وشجرة تسمى الطرفاء، ومنهم من يقول خلاف ذلك، وأن المقصود أنها شجر أخشاب ما لها ثمار، فهذه قصة تاريخية حقيقة، ذكرها الله – عز وجل – في كتابه لنجعلها مِثلية، فكل مَن كان في رغد من العيش، فكفر بأنعُم الله، لا بد أن يقع معه ما وقع مع هؤلاء، والوسائل تتغير.

﴿.. وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ..﴾ [سبأ: ١٦]، أما السدر فهو النَّبَق، ونعرفه بأنه شجر الدوم، تلك الثمرة الصغيرة التي لا تُشبع، وهذه الثمرة الصغيرة قال الله عنها: ﴿.. وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦]، ﴿شَيْءٍ﴾: للتبعيض، و﴿مِنْ﴾ للتبعيض، و﴿قَلِيلٍ﴾ للتقليل، فلماذا فعل الله هذا بهم؟ إنها السنة الربانية في

الأمم كافة:

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧]. والفعل المضارع ﴿نُجَازِي﴾ يفيد الاستمرارية، وقوله ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ﴾ للعلة، وبيان سببها: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ..﴾ [سبأ: ١٨]، بعد أن حُرمت هذه القرية رغد العيش بإعراضهم، وحل بديارهم القحط، تحولوا من

بلاد اليمن إلى جزيرة الحجاز، بالقرب من الشام، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ..﴾ [سبأ: ١٨]، فكل قرية ذُكرت في القرآن ووُصفت بأنها مبارك فيها عي من قرى بلاد الشام، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ..﴾ [سبأ: ١٨]، فمن رحمة الله بهم، انتقلوا من بلادهم التي حل بها القحط، إلى بلادٍ أخرى خير منها، إلا أنها تفتقر إلى رغد العيش الزائد الذي كان

في سبأ قبل نزول العقاب بها، فأقام لهم الله – عز وجل – بلادًا جديدة وقرىً ظاهرة، وصار لهم فيها دورٌ يرى بعضهم بعضًا من خلالها، يراها قائمة ظاهرة، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨]، وقدم الله السير في الليل على السير في النهار؛ لأن حاجة المسافر للأمن في الليل أكثر من حاجته

للأمن في النهار، ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ﴾، وذكر الليالي والأيام يدل على اتساع البلاد، وكثرة القرى، وظهور العمران من حولها، فهذا من فضل الله عليهم ورحمته بهم بعد أن حلت بهم العقوبة السابقة، لعلهم يتعظون مما حل بهم، إلا أنهم لم يأخذوا العظة ولم يعوا العبرة، واستمروا على عصيانهم وذنوبهم.

﴿.. وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾

[سبأ: ١٨]، فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ..﴾ [سبأ: ١٩]، وذلك لانشغالهم بتكثير العمران، وفي قراءة صحيحة متواترة: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِّد بَيْنَ أَسْفَارِنَا ..﴾، وأصبح التباعد للافتخار، فيتفاخرون بكثرة الدور وعظم البنيان، وهذا من ظلمهم لأنفسهم كما قال عنهم – عز وجل –: ﴿.. وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ..﴾ [سبأ: ١٩]، بأن رجعوا إلى معاصيهم وذنوبهم، وتركوا التوحيد

والاستجابة للأنبياء، وما شكروا نعم ربهم عليهم، فكانت السنة الربانية: ﴿.. فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ..﴾ [سبأ: ١٩]، جعلناهم أحاديث الناس، وأحاديث المجالس، ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ﴾ تقول: مزقت ثوبي، أي: جعلته قطعًا، وجعلت كل قطعةٍ في مكان، وهكذا كان حال هؤلاء﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ﴾ أي جعلناهم ممزقين ومفرقين في أنحاء الأرض لا يجمعهم بلد واحد.

الفهرس

مقدمة	١
الخطاب الإلهي للنبي – صلى الله عليه وسلم – بالاستقامة على الدين	١
الخطاب الإلهي للأمة بالاستقامة على الدين	٦
بركات وثمرات الاستقامة على الدين	١٥
خيرات الاستقامة وسيئات الذنوب	٢٩
آثار الذنوب على المجتمعات والشعوب	٤٤
النوع الأول	٤٧
النوع الثاني	٥٢
النوع الثالث	٥٨

النوع الرابع ٥٩
النوع الخامس ٦١
كتاب الله ذِكرٌ لنا فَلْنستقم ٦٧
قصة سبأ التي أعرضت عن طريق الاستقامة ٧٨